التمـوجـات

حيدر حيدر

ـ 1 ـ

فوق عينيه ووجهه وضع الرجل راحتيه ، وتنهد . صعدت النهدة الموجعة من حقول القلب ، وكان يبغي أن يقول شيئا ما تحت جناح الليل . شيء لا يرغب أن يراه في وضح النهار الفاضح .

من خلال موشورات الاصابع ، لمعت أضواء المدينة ، وامواج البحر ، واذ مال الرأس الى الوراء والاعلى بحركة متعبة ، تلألأت نجوم بعيدة في سماء بيـروت .

غزة كهذه النجوم السحيقة الآن !

قال الرجل العبارة ، بينما كان الليل الطفل يستمع للنشيج ويرى قطرات الدمع تتسلل من أطراف الاصابع .

امامهما البحر . بحر الرملة البيضاء بموجه الشبيه بقطعان مذعورة ، والشمس مدى من الماس ، والاصوات . لقد جاءا من المدينة بمسافة عشرين ميلا عندما يسأل غيلان الدمشقي : لماذا هذا الرحيل الطويـل والبحر علـى مرمى حجـر ؟

يقول بشر الغزاوي باحتفالية : لأشعر بانني رحلت الى البحر . ثـم يردف : هذا الشبيه ببحر غزة البعيد . يبدو المشهد البحري مضيئا ومهيجا .

النساء نصف العرايا يلمعن كاللآليء وهن يتراشقن الماء . قطراته تسيل من منحدر النهدين نحو السرة باتجاه الاودية . غير أن بشر بن عبـد الله الغزاوي يبدو خارج المشهـد .

مذ بطأ الرمل الحار تبدا استعراضاته وحركاته الاحتفالية مع صاحب المسبح والنذل والمرأة التي تدير البار والمطعم . يطلب السمـك الطـازج والبيرة وسيكار الهافانا ، ثم يتبختر باتجاه الشاليه .

وهو منبطح فوق الرمل تنشط ذاكرته الميكانيكية فيبتدي خياله الجموح بابتداع قصص وهمية عن السفر والنساء والحرب والثورة ، والنزوح المتواصل.

مرة او مرتين يبتل بالبحر ، ثم يعود ليحتسي البيرة ويدخن الجيتان متابعا قصص البطولة القديمة والحزن .

هذه القصص تتواصل وهما على المائدة الى أن تهوي الشمس وراء الأفق.

بعد هذا الصيلان المتلاحق كموج البحر ، يسأله غيلان وهما عائدان الى المدينة : هل انت متأكد انك رحلت الى البحر يا عزيزي دونكيشوت.؟ !

ـ 2 ـ

المرأة التي حضرت في ذلك الغسق المتأخر ، سمراء ، طويلة الشعـر . شفتاها شهويتان ، لكن وجهها في قساوة الحجـر .

بدت آنذاك حزينة بعينين تقطران طفولـة .

على السرير المقابل ، جلست . في البدء ما نبست باكثر من : آه . مـا أقـذر الـدنيـا !

كان الرجل المتكيء على عارضة السرير الخلفية ، يعاني من مغص معوي، ومـن كآبـة .

كانت هناك موسيقا . بين السريرين طاولة عليها أوراق ومنفضة وعلبة سجائـر .

ـ هل كنت تكتب ؟

ـ لا . كنت أحضر نفسي للنـوم .

ثم رزح الصمت بينهما . واذ سألته ان كان مستغربا حضورها المتأخر في هذا الليل ، نفى بهز رأسه .

وقالت المرأة : أوصلني صديق الى هنا بسيارته .

ـ آه . ما اقذر العـالـم .

من النافذة الضيقة والعالية ، والشبيهة بنوافذ الزنزانات ، اقبلت موجة ريح صيفيـة .

وقالت المرأة : ألا تخاف وانت وحيد في هذا البيت ؟

كان الآن منطويا على جسده وقد جمع اللحاف حتى رقبته. وقال بضعف : أشعـر بالبـرد .

وما كانت العبارة لتتجاوز افقها الفيزيولوجي .

وقالت المرأة بغتة : الرجل الذي أوصلني الى هنا سألني لماذا أذهب الى رجل آخر في أواخر الليل .

قلت له : لأنني أشعـر بالكآبـة .

وردّ بنزق : بل انت تكذبين ، انني اشتهيك وما انت تذهبين الى فراش رجل غريب ، الا تخجلين من ذلك ؟

كانت تتكلم وأصابعها تغطي عينيها وشعرها مسدل حتى حوضها . كان شعرها الطويل يبدو كاغصان تتهدل على حواف السرير .

وسالها ان كانت ترغب شرب شيء ما ، فرفضت ، وخلال لحظة بدا محرجا ومرتبكا . كان التشنج المعوي يتموج ويعلو ، وراح الرجل يحرك اصابع قدميه لتتفسا .

تناولت المرأة كيسها واخرجت سجائر ودخنت .

ـ قلت للرجل الذي جاء بي : لا اعرف كيف اقنعك بانني لست عاهرة . غريب ! يا الهي . لماذا نحن هكذا ؟

وسالها الرجل الملتحف : من نحن ؟

ـ العرب .

ـ اي عرب ؟

كان صوت البحر ينمو عبر ادراج الليل . واستوضحت المرأة ان كانت مزعجة وثقيلة ومملة في هذا الوقت المتاخر ، ونظر الرجل نحوها باندهاش : لماذا تفكرين هكذا ؟

وضغط النفس والجسد ونهض الى الحمام ثم عرج على المطبخ ليعد الشاي .

كان الفجر ينمو من الشرق ، وريح الصباح المنعشة تتغلغل في المسام .

ـ اعددت لك شايا. قال ذلك وهو يرتعش. وصب لها وله. احس بالدفء وهو يرى بخار الشاي الصاعد .

ـ لماذا لا تجلس قربي . هل انت خائف ؟

ـ لا . انما هناك شيء آخر .

ـ ما هو ؟

ـ البرد .

شربا الشاي وهما متقابلان ، ودخنا .

خف ضغط المغص ، وانحسرت موجة الكآبة .

وقال الرجل مبتسما : بودي أن أرقص لك !

فاجأتها العبارة فضحكت : ترقص ؟

ـ بلى . وماذا في الأمر ؟

ـ ولكن لماذا ؟

وقال : لتزول كآبتك !

ازاح الطاولة وابتدأ يرقص . وراحت هي تصفق وتبتسم وترمي الكآبة

خـارج الغـرفـة .

بعد العبطة فوجئا بالصباح الطفل يضحك وهو يملأ البيت .

وعدوني بمنصب كبير هنا او في الخارج . سيكافئونني على ما قدمت للتنظيم .

ـ مثـلا ؟

ـ مكتب في الفاكهاني او سفير في الخارج .

ـ عظيـم .

ـ أنت تسخـر ؟

ـ أبدا أخي بشر فقط أستمع وأشهد .

ويقول بشر الغزاوي : اسمع أخي غيلان . أنا أعرف امكانياتي . لقـد خبرتها في الحرب والسام وخرجت باستنتاج لا يقبل الاعتراض : انني قادر ان أصنع شيئا ، لا أقول خارقا ، انما مهم جدا لشعبي وثورتي .

من شرفة البيت يلمح غيلان الدمشقي شهابا يهوى فوق سطح البحـر ويتلاشى .

ووراء البحر يرى طرطوس الجميلة ، البسيطة ، الغبراء ، وجزيرة ارواد الممتدة في عرض البحر كتمساح .

شوارع من الحوانيت ، وفنادق الدرجة الاولى ، ومقاه انيقة للسواح ، وبارات وشاليهات ، وسيارات مرسيدس سوداء ، ثم المرفأ الذي تهبط منه صناديق الويسكي والمارلبورو ومسدسات الماغنوم، وعلب الحشيش والافيون.

بالأمس سهرت في الكورال بيتش . أتعلم ماذا حدث ؟ يتحدث الرجل المهم المسمى بشر الغزاوي .

يقول غيلان : لا . لا أعلم ماذا حدث ! يتابع بشر : يا سيدي وانا اراقص صديقتي حدث هرج وأصوات وذعر .

توقف الرقص والموسيقا وخرجنا كالمجانين ، سألنا عن الخبر فقالوا : سقطت طلقات رشاش / 500 / فانفجرت فقتلت أربعة : رجلان وامرأتان كانوا عراة ليلا على الرمل . تصور !

ضحك غيلان : تصورت والتقطت لكل منهم صورة دموية .

ـ آه . انت تسخـر ؟

ـ ولو ! فقط أتصور المشهد الحزين .

ـ تصور يا سيدي . قبل ذلك بيومين مارست الجنس مع صديقتي في المكان نفسه .

ـ وعلـى الـرمـل ؟

ـ على الرمل قرب حافة الموج .
ـ آه . آه . لا بد ان رامي رشاش الـ / 500 / كان نائما آنذاك . اعنك
ـ على ماذا ؟
ـ انك بقيت على قيد الحياة لتصنع شيئك المهم للشعبك العظيم في الأزمنة القادمة .

ـ مشهد خاص من سيناء الـ 73 ـ

الغزلان التي طوردت في ذلك الفجر البهيج ، كانت قبل المطاردة ممتلئة بالبهجة . بهجة الوصول الى منابع الماء والمرعى .

كان صباحا مفعما بالعذوبة والضياء ، كما كان صباحا نابضا بالغدر . وكانت الغزلان تعدو في عمق الصحراء تحت أمواج البهجة لا ترى الصيادين ببنادقهم والعربات الوحشية ، وفي المقدمة كان ايل الطليعة يندفع بالغزلان وثبا نحو حدود الشمس .

عندما كان القطيع يضعف تحت وطأة المطاردة ، يرتد الايل صارخا بالغزلان كي تتقدم .

ريح الصباح كانت رخاء ، وفوق جباه وصدور الغزلان المبللة بالعرق ، راحت الشمس الدافئة من الشرق تتلألأ ، غير ان الموت كان ينبض من الشمس ومن الريح ومن ذرات الرمل المتطاير .

ما تزال الغزلان الجامحة تتواثب كامواج بحر ، في الوقت الذي كانوا يقتربون فيه ببنادقهم سريعة الطلقات وستراتهم الكاكية .

فجاة من الأمام والجوانب ، فوجئت الغزلان بالكمائن فابتدا دوار الشمس.

اذ ابتدا الانهاك ابتدات الغزلان تتهاوى وتركع . وفي تلك اللحظة الخائنة انهمر الرصاص من الوراء والامام والجوانب . كان القطيع الآن داخل الدائرة المغلقة في عمق الصحراء المهجورة .

في مساحة الدائرة داخل حقل الرمي الصحراوي ، راحت الغزلان المذعورة تثب نحو الاعالي وهي تتصادم وتتلقى الرصاص في الراس والصدر والفقرات. وابتدات الصحراء تصرخ وتنزف .

كانت الارض تتوجع بأصداء بعيدة ، جارحة ، تحت سماء ساطعة الضوء . تحت سماء بهية محايدة .

عندما استدار ايل الطليعة ليهيب بالغزلان أن تنهض ، رآها ملفعة بدمائها فوق الرمل .

عبر لحظة كالبرق دار حول القطيع الدامي ثم اندفع كشهاب باتجاه صدور القتلة وهوى .

ـ 3 ـ

وقال بشر الغزاوي : انتهى عصر الحب وجاء زمن القتل . انا مع الارهاب في زمن الحصار .

بالأمس غزة وفيما بعد سيناء والجولان ثم جنوب لبنان . ما الذي بقي لنا غير هذا الشارع الاخير المطل على البحر ! ؟

ويتابع وهو يحتسي السكوتش : صرنا كجند طارق . البحر وراءنا والعدو يتقدم نحونا . ابتسم غيلان الدمشقي : لا تحزن يا أخي ولا تغضب هناك العرب .

ـ اي عرب ؟

ـ عرب الحروب الاربع .

ـ عرب الهزائم المتواصلة ! هيه . هيه . طظ . أخ يغيلان هل لديك سيكار هافانا سبيسيال ؟

ـ لماذا ؟

ـ لنأخذه معنا الى البحر غدا . بعد وجبة سمك وعرق توما الاكويني يطيب السيكار .

ـ والنساء أخي بشر هل نسيتهن !

ـ صدقني قرفت منهن . أنا ما عدت أرى في المرأة أكثر من فراش . انت ربما تحتج لكنني أقول لك ، وانا اكثر خبرة منك ، ان في رأس كل امرأة مشروع عاهرة . هذه حقيقة لا تقبل الجدل .

ـ لا بد أنك مناضل وثوري من طراز جديد في هذا المجال حتى استنتجت ذلك !

ـ انت تهزأ ؟

ويرتج غيلان بضحكة تعادل طلقة .

بشر بن عبد الله الغزاوي ، يرمي طرف حذائه على حافة افريز الشرفة لافا قدماً فوق اخرى .

أمامه يمتد الليل والشبابيك الناعسة بالضوء خلف ستائر مسدلة .

فجأة ينتفض : انظر . انظر . هناك امرأة تتعرى .

ويقول غيلان : هذا من أجلك لا بد .

ويقهقه بشر : هوه. هوه. أنت ماذا تعرف عن النساء يا عزيزي القديس. افتل لهن اصابعك في الهواء فيتبعنك ككلاب الصيد .

وفي التو يفرقع ، باستعراض تمثيلي ، اصبعيه في فراغ الليل الهادىء .

يحدث ذلك في اللحظة التي تبدأ فيها القذائف العمياء انفجاراتها في احشاء حي الشياح .

بين الصحراء التي اغتيلت فوقها الغزلان ، والمدن البعيدة ، امتداد بحر لا يعبـر .

وغيلان الدمشقي ، من شرفة بحر الرملة البيضاء ، يرى البحر الممتد جنوبا حتى غزة ، وشمالا حتى طرطوس . وتحت الشمس ، يرى البحر الذي انشطر باعصار الريح الاسرائيلية والريح العربية .

في مهب هذه الرياح التي تتآخى في لحظة الحصار ، ثم تنشطر في لحظة الرعد ، كان بشر بن عبد الله الغزاوي يقاتل ويطارد ويلتجيء ، ثم يسكـر ويتحدث عن الجنس وسيكار هافانا وتل الزعتر .

وهما مرميان على الرمل الحار ، يمتد بصرهما نحو الشمال والجنوب .

لا بصر بشر يصل غزة ، ولا غيلان يصل طرطوس وأرواد .

بعد ارتداد طرفيهما ، تتصادم العيون بالعيون فتشع تحت بريق الدمع ، حقول غزة البرتقالية ، وسهول طرطوس الخضراء .

المـــديـــة

طعنة تلك المرأة كانت قاسية . جاءت مباغتة في وقت الحصار ، في وقت العري الكامل . ولكن لماذا توافقت مع لحظة اغتيال الغزلان في الصحراء المـديـدة .

لم تقل وداعا . فقط استدارت ، هاربة مع الرجل الآخـر .

هربت عندما كانت سماء بيروت تلتهب ، والارض العربيـة تتشقـق بالبكتيريا والجراثيم والحليب المسمم ، والهجوم المضاد .

بشر الغزاوي عاتبها قبل الهرب : لقد خنتني مرتين ومع ذلك بامكاني أن أصفح . نحن يا ريم معا في خندق ثوري واحد وعلى الثوار ان يكونـوا اوفـيـاء .

غير أن المرأة السمراء ، ذات الشعر الطويل ، والوجه الغجري ، نفضت شعرها الى الوراء وانطلقت في فضاء الرجل الجديد ، الرجل الذي صار سماءها ودمها الجديد . المرأة اذ تقرر أن تخون تتحول الى كلبة مسعورة . انها تفعل ذلك في الساحات والشوارع وفي وضح النهار .

يقول بشر الثوري . ثم يستطرد وهو على حافة الدمع : مـن خيانـة الوطن الى خيانة المرأة . يا الهي نحن قوم نتعمد بالخيانة منذ هولاكو حتى خيانة أمرأة الفرعون . يتنهد غيلان مغبونا : الاستثناء عندك يتحـول الـى قاعدة . انت يا صاحبي غزال ينزف .

يصرخ بشر بصوته الحاد راجا سماء الله الخرساء : الزمن الفلسطيني هو المجروح وانا ابن هذا الزمن المغدور .

ستقول المرأة التي اسمها ريم : كنت مهانة في الزمن القديم ، لسنوات ست وهو يقطف زهرة عمري ، وعندما ملني وابتدا شبابي يغرب ، استدار عني باتجاه نساء بيروت في شارع الحمراء وراس بيروت والروشة والكورال بيتش . ثم تقول : لا أدري ما الذي حوله من يساري متطرف الى محترف حانات وملاهي. رجل كان يبدو في بداية حبنا وانخراطنا في المقاومة، مصنوعا من الفولاذ والثقة بالنصر . كنا معا في خلية سرية داخل منظمة يسارية ونعمل داخل المقاومة لاقامة سلطة ثورية على مستوى الوطن العربي .

من اوروبا قدمت معه . هناك تعرفت عليه . مع الزمن تأقلمت . تعلمت اللغة والعادات وصعوبة الحياة الجديدة . كان يقول لي : اننا نعمل لتغيير وجه التاريخ في هذه البلاد المتخلفة والمضطهدة والمنقسمة . عشنا حياة بسيطة ، فقيرة في راس النبع ثم انتقلنا الى الفاكهاني . كانت غرفتنا بحجم تابوت . سرير وكرسيان وطاولة وادوات مطبخ متواضعة . وكنا سعداء كطيرين عاشقين . ابان الحرب عملت مع الاتحاد النسائي في شاتيلا والشياح وبرج البراجنة . هو كان يقاتل في راس النبع وفيما بعد انتقل الى تل الزعتر .

سنوات الحرب كانت رائعة رغم قسوتها واخطائها . كنا نعتقد حقا اننا نفعل شيئا مجيدا . شيء سيغير وجه الدنيا .

في عيون الشهداء والحماسة الفتية للمقاومة والبروق التي اشعلتها الثورات في امريكا اللاتينية من التوباماروس الى كوبا غيفارا ، كنا نرى الحياة الجديدة .

يأتي الرفاق الى كوخنا الصغير في أوقات الهدنة . نجلس على الارض بثيابنا الوسخة ورائحتنا التي انتنت من قلة الماء وقت الحرب . ندخن ونشرب الشاي وبعض النبيذ ، ثم ندخل في حوارات حادة حول الحرب الاهلية وانحرافات المقاتلين ، ، والسرقات ، وعظمة الشهداء وبسالتهم ، وامكانية مد نار الحرب الى كل بلاد العرب لتحرق العالم القديم ، وبناء مجتمع الاشتراكية والحرية .

في ذلك الوقت اللاهب ، وبعد أن ينصرفوا ، ننام معا بشوق من سيموت بعد لحظة الجنس .

هو كان يقول : في الحرب لماذا يتعفق الانسان بالجنس .

وكنت اقول : ليرد شبح الموت .

ويقول : هل ستفرقنا الحرب ؟

واقول : الا ترى كيف نحن متداخلان كالجذر والتراب تحت لهيب الحرب!

ـ ولن يخون احدنا الآخر ؟
ـ الحرب تزيدنا وفاء .

واذ ينشق جسدانا بقصف مفاجيء ، ننهض . نتناول أسلحتنا ونعدو الى مواقع الحرب .

الانسحاب

الساعة الآن تشير الى العاشرة مساء . لقد صدرت الاوامر بالانسحاب عن طريق الجبل .

خمسون مقاتلا اتجهنا شرق المعسكر وشققنا طريقنا عبر الوادي . كنا نجتاز الصخور المسننة وأجم السنديان والعرعار والزعرور . على غير هدى نسير باتجاه الجنوب والشرق . اننا نثب بسرعة فهود مطاردة تحت هذا الليل المطارد .

تحت هذا الليل افكر بزوجتي رغم ما حدث ، وفي الوقت نفسه أفكر برفاق المخيم . اذ أصحو من افكاري اتساءل ان كنا سننجو أم نموت ؟

أتذكر الموت . الجثث المطروحة في أزقة المخيم . كذلك أرى الاشباح وهي تركض ، هي ذي تصيح . أسمع صوتا ينادي : سلم . سلم . قف سلم نفسك .

الطلقات تنز من حولنا . اركض وانا داخل حالة من الذهول والرعب . الجميع يركضون . كان العدو يقترب منا . لمحته وانا أحاول عبور رصيف احدى القرى . بسرعة وثبت واستطعت تجاوز الرصيف .

بدا العدو يطلق النار بغزارة وهو ينادي بأعلى صوت . صوته كان يجوب عبر الأودية والقرى والسماء : سلم نفسك .

شعرت انني معلق بين السماء والارض كانت المسافة مسافة السماء عن الارض . كنت أطير وأنا اتضرع أن اصل حدود الارض ، ارض النجاة والامان بين طلقات تشق طريقها حولي . طلقات تحصد الحجارة والشجر وتجرح الصخور . كحزام خاطف كانت تبهق من حولي ، وكان هناك جسر . كان علينا لننجو أن نتجاوز الجسر . لكن الفاشيين كانوا يركزون نيرانهم على الجسر .

في لحظة خارجة عن مدار العقل والمنطق . لحظة اختراق الموت والحياة وصلت الارض . لقد قفزت من علو خمسة أمتار . رجلي اليمنى بعد أن سقطت اعتقدت أنها انخلعت .

تفحصت جسدي بسرعة لان الوقت ما كان كافيا لتفقد الالم . كان الموت على الجسر وكان يحصد الرفاق .

تابعت بسرعة قطط البرية المطاردة والجريحة ، والتحقت باثنى عشر مقاتلا .

ونحن نعدو بين الصخور ، كنا ما نزال نسمع الاصوات وهي تصرخ ، والطلقات تئز فوقنا وخلفنا .

بعد انهاك أسأل ، ترى ما الذي حدث للآخرين ؟ استسلموا ام استشهدوا أم عادوا ؟

العمراء

عندما كانا يتعريان في البراري ، كان يركع امام جسدها البرونزي . يقبل الارض ثم يرفع ذراعيه ويأخذها بينهما . يلثم صدغها ثم عينيها وعنقها وثدييها وسرتها ، ثم ينغمر ما بين فخذيها المبازكين . وهو ينهض تلوح سماء مضيئة كالنحاس ، اذ ذاك يتوالجان كجذرين يلتفان ويلتفان ويلتفان حتى تصرخ الارض والمسام وتجلجل السماء بوعدها النبوي .

في ذلك الوقت المديد كافق ، ينسى الاثنان قسوة الزمن . هي تنسى ما فعل بها الرجل الآخر وهو ينسى خيانة امراته .

بعد صلاة البزاري ، يستلقى الجسدان القادمان من رحلة الجنون والطفولة فتبدو السماء غالية ، عالية ، زرقاء ، زرقاء كقبة هائلة ، والموت مؤجلا .

وهما ممددان تحت هذه السماء كعصفورين ، تسأله :

ـ أهناك في الاعالي يسكن الله ؟

يضحك وهو ملقى على العشب . يتنفس ثم يقول : هناك يسكن الوفاء .

وتسأله : أنت هل ستموت ؟

يغضبن ، ثم لا يفوه .

ثم تسأله : زوجي القديم كان يسكر ويعود ومعه امرأة . لماذا يطرد الرجل امرأة من حياته بعد حب عاصف ؟

وتضربه صاعقة فيكتم خيانة امرأة ضاجعت رجلا مرتين وصارحته .

ثم تقول : كان وسيما وتقدميا ، لكنه كان يهوى جمع النساء كطوابع تذكارية . وتحمله الريح لتلوح له صورة الرجل الفرد الذي اختارته زوجته .

وعندما تسأل : لماذا يقولون ان البدوي ياخذ بثاره ولو بعد أربعين عاما؟

يقول : تأخرنا .

وفي زمن ما تقع غزة تحت الحصار . يجيئها البرابرة من كل حدب وصوب . لكن غزة تصرخ وتتماوج ويلمع بوقها الغاضب . يحمل بشر الغزاوي فوق اكتاف البرق ويصرخ مع غزة ، ثم ينشد نشيد الأممية ، فتردد الرعود : غزة ستالينغراد . غزة لن تموت !

ينطلق رصاص البرابرة فيحصد القمح المتماوج ، ويصاب بشر فيهوى جريحا .

وفي ذلك الوقت تركض حقول طرطوس الخضراء لعناق البحر المتوسط تحت سماء منغم بأغاني صيادي جزيرة ارواد العائدين من شواطيء قبرص وكريت ، تحو احضان نسائهم اللواتي حرقهن الشوق للرجال .

على ضفاف أرواد ، بوابة البحر ، يندس بين النساء القادمات لاستقبال الرجال العائدين ، رجال عابسون يرتدون سترات كاكية تخفي مسدسات الماغنوم .

من خلال الحشد وغيلان الدمشقي يطوق زوجته ، تمتد الاذرع الكاكية لتفصل غيلان عن جسد زوجته الحار .

المسافات

ها نحن من جديد .

ثلاثة عشر مقاتلا ، تحت ليل حالك ، نعبر الاودية ، نرتطم بالصخور والاشواك ، وهوام الارض ، وفي أعماقنا الجوع والعطش والتوق للتدخين .

سير متواصل حتى الانهاك ، والفزع والعرق يجللنا .

كنت في المؤخرة . رجلي تؤلمني الما شديدا من سقطة الجسر . بينما المجموعة تتقدمني بسرعة مذهلة .

ابتدا التعب يخيم على الجميع . نسير مسافة ثم نكمن بعد أن نرسل دورية استطلاع .

كان المقاتلون ينتظرونني حتى أصل ثم نتابع . كم كنت راغبا في الاستراحة ، لكنهم كانوا يواصلون المسير بسرعة . في غمرة الانهاك فكرت أن اتركهم وأستريح في كنف صخرة ، ثم فكرت انني لا اعرف الطريق الى الجبل . ان بقائي قرب المجموعة يعطيني القوة . بدات اتكيء على الكلاشنيكوف وكأنه عصا .

ونحن نسير بين جبلين ، فوجئنا ببيتين مضيئين على السفح ، وفجاة انطلقت أصوات .

بحذر عبرنا بين المنزلين . كنت بعيدا عن المجموعة حوالي ثلاثين مترا في المؤخرة .

ابتدات الاصوات تتعالى ، لا بد أنهم كشفونا . انذرونا بالوقوف ، كنت اسمعهم يقولون : هناك ناس في الوادي .

وفجاة انفجر الوادي بالطلقات كنا نسمع أزيزها وهي تنساب بيننا . المجموعة اجتازت المنزلين وثبتا . بقيت وحيدا فلم أستطع

العبور . اختبأت وراء أجمة من الشوك ، وكنت اسمعهم وهم ينادون بعضهم بعضا : نحن هنا في الوادي لا تطلقوا النار . كان هناك مصباح يدوي يضيء بين الاشجار ، وكانوا يقتربون مني ، وتساءلت : هل أسلم أم أقاوم ؟

وقعت فريسة حيرة واختيار وأحلاهما مر . سأموت . صار الامر واضحا . آه . من هذا الالم الحاد في قدمي ومن هذا الحصار اللعين ، قلت : ليتني بقيت في الزعتر ومت هناك !

كانوا يتجهون نحوي تماما ، وكنت أرى أشباحهم . خيل الي انهم كشفوا موقعي . تسمرت وكتمت أنفاسي . كنت قد قررت المقاومة حتى النهاية ، وضعت أصبعي على الزناد ، كانوا الآن على مسافة ستة الى سبعة أمتار من مكمني . قطعت التنفس وتحولت الى حجر . كدت أختنق واليد على الزناد . في اللحظة التي هممت أن أضغط فيها ، غيروا اتجاههم نحو عمق الوادي ، وراحوا يبتعدون .

أحسست بالجبل ينزاح عن صدري فتنفست عميقا ، ولكن لم أتزحزح . يبدو أن هناك كمينا على بعد عشرة أمتار تقريبا ، وما زالوا يواصلون النداءات : لا تذهبوا الى أسفل الوادي . عودوا . بقيت مكاني جامدا حتى عادوا الى المنزل المضاء . انبثق الفجر وأنا ما زلت مكتوما على نفسي كقنفذ وراء أجمة الشوك . بدأت أفكر والصباح يكشفني : ماذا أفعل ؟

ظهر الضوء ولو تابعت المسير فسأنكشف . لو تحركت من مكاني فسيرونني . فكرت بأخفاء سلاحي ومتابعة السير بمظهر مدني عادي .

تحركت زحفا وخبأت الكلاشن ، ثم تركت علامة تشير اليه قرب شجرة صنوبر ، وقررت النهوض والسير بلا سلاح . قطعت حوالي مئة وخمسين مترا . ما كان بالامكان متابعة السير . كنت مكشوفا . فكرت ان أقضي كل ذلك النهار مختبئا حتى يأتي الليل . رأيت دربا ترابية بين مجموعة من الصخور الضخمة ، كانت قريبة مني . تسللت زحفا حتى ضربت بين الصخور . بحثت عن فجوة لارقد فيها ، وبعد أن عثرت عليها أخرجت مديتي وبدأت بقطع أحزمة من الشوك . جمعتها ثم انحشرت بين صخرتين كبيرتين وبدأت اغطي جسدي بأغمار الشوك التي موهتني وأخفتني عن الانظار .

كانت الفجوة ضيقة تشبه القبر ، وداخلها كنت كالميت الحي . تعب ظهري فحاولت الانكفاء على جنبي لاستريح ، استغرق ذلك حوالي ربع ساعة داخل هذا القبر الشوكي .

كانت نتوءات الصخر تخز جسدي وأنا أتقلب وأتحرك ، حاولت النوم فما استطعت . كانت هناك رائحة الارض والصخر والشوك ، ورائحة جسدي الذي

يغيض مع الارض . كنت اشك أنني سابقى حيا . وفي هذه الغمرة نسيت آلام قصي . كانت في راسي صور ومشاهد التل : القتال اللامتكافيء ، وصمود الاستشهاد والعطش وأنين الجرحى ، والعيش على العدس ، والاطفال الذين نفقوا من العطش ، ومصيدة آبار المياه الواقعة تحت مرمى نيران الفاشيين ، واعدام الجرحى ، وانهيار الملجأ على الاطفال والنساء والجرحى ، ومشاهد الذبح التي تمت بعد الخروج من الحصار .

صور ، ومشاهد ، وأصوات ، كانت تتزلمج وتتطاير في راسي في هذه اللحظة اللعينة ، فيستعصي النوم . أغفو هنيهات فتمر كوابيس الرعب والموت فاستيقظ وأنا أكاد أختنق .

انا الآن كذئب جريح أنام بعين وأفتح الاخرى خشية المباغتة .

كم بدا النهار طويلا ، لم يكن نهارا ، كان قرنا من الزمن . وما كنت موقنا أنه سينقضي . لقد هدني الجوع والعطش وهذه الاشواك . في هذا القبر عانيت أكثر مما عانيت في تل الزعتر ، هناك كنت حرا ، معي بندقيتي وأنا اقاتل من موقع لموقع . أما هنا فانا داخل قبر : آه . ليتني بقيت في الزعتر .

عندما غربت الشمس ، وأتت الظلمة ، خيم على المنطقة هدوء غريب فاحسست بالانفراج والغبطة . اذ خرجت من حفرتي خيل الي أنني أنهض من أعماق بحر عميق مكثت فيه دهرا . تنفست رياح الفضاء كلها وادخلتها الى رئتي . حركت ذراعي ورجلي . كانت الدماء تنزف منها . كل جسدي كان مجرحا ، ومع ذلك قلت بفرح الحياة الجميلة : انت ما تزال حيا يا يعقوب وينبغي أن تظل .

حثثت خطاي باتجاه مخبأ الكلاشن . اقتربت من المكان ورحت أبحث عنه . لا بد أنني نسيت العلامة والشجرة . ارتعدت ، اعتقدت أنهم كشفوا سلاحي لكنني لم اقطع الامل .

تابعت البحث بين جيوب الشوك . ساعة كاملة ولما أعثر . وافتش : لا بد أن ألقى سلاحي فانا جوعته لا شيء وبلا سلاحي سأموت .

أصـــــــداء

ويكون عصـــرا غـــريبـــا .

يجيء بالرعب والمجاعات وبيع الاوطان وآثار الحضارات القديمة .

عصر تسيطر عليه آلهة الغاب وحملة الماغنوم والبزاونـــخ والثيـــاب الكـــاكيـــة .

عصر يقول عنه بشر الغزاوي : فيه تقتل الغزلان وتنتزع قلوبها ثم تعلب لتباع في الدول سنغوبت وشوارع تل ابيب وغزة والقاهرة وأرواد وبيروت ..

يقول ذلك وهو يحتسي البيرة على شواطيء بيروت الذهبية .

ثم يدخل في مونولوج غريب عن طفولته وجماله القديم ، وبيته الذي كان مطوقا ببيارات البرتقال وأسيجة الصبار .

يتحدث عن ابيه الذي تزوج أربع نساء ، صغراهن الاخيرة كانت في السابعة عشرة وهو على ابواب الخمسين. أبوه الذي كانوا يسمونه: صقر غزة.

ويتابع وهو عار بثياب البحر. وعيناه في الشمس وأفق البحر. حكايات قديمة ذات رائحة ميلودرامية . كيف كان يقود المظاهرات ، وكيف اعتقل لأول مرة من البوليس المصري في غزة ، وكيف مارس الجنس مع ابنة خاله بين أشجار البرتقال وهو في الرابعة عشرة . كان يشرب الخمر بوحشية ويخوض شجارات دامية مع أولاد الحي . وكان دائما هو المنتصر .

وفي غمرة هذياناته الدونكيشوتية ، يتحدث عن الحشاشين واللواطين الذين حاولوا مراودته في أزقة الاحياء الشعبية : كنت يافعا وجميلا مثل غزال . رأيت كبيرهم يشير نحوي ويقول : يا ولد . يا غندور . يا حلاوة . تعال خذ لك حصة . وانطلقت قهقهاتهم الماجنة من حولي . لا ادري كيف اندفعت نحو كبير القوادين وفي يدي المدية . فاجأته وشطبت وجهه . ذعروا من المفاجأة . تجمع الناس . هرب القواد الجريح وهو يصرخ ويولول .

غيلان الدمشقي كان يستمع لصوت البحر ، ويتملى لمعان الاشعة على سطح الحقل الازرق . بعد قليل نهض وسار على الرمل . كان الرمل المبلل ينخسف قليلا تحت القدمين العاريتين .

راقب قدميه وهما ترسمان الآثار التي يمحوها أطراف الموج . انحنى يجمع الاصداف الصغيرة . أصداف بيضاء وأصداف بنفسجية ، ناعمة وملساء ، كان يجمعها حفنات صغيرة ثم يغسل عنها الرمل .

في الذاكرة لمعت شواطيء طرطوس الحزينة ، فخفق القلب الحزين . سقطت من العين لؤلؤة امتلأت بها صحفة .
شواطيء مد البصر . خضراء تنام بين اذرع البحر . اغاني صيادي اوراد ومصابيح زوارقهم الليلية . المرأة التي عشقها على الشواطيء وطارد معها سراطانات البحر وجمعا الاصداف يوما ، والتي ماتت غما .

الآن . الآن . ينهض الخصار عاليا . عاليا ، يطوق البحر والسهول الخضر ، ويهبط بأشباحه السود فوق ذرا الجبال .

الـــجـــــوع

وجدت الكلاشن اخيرا قرب الشجرة . انتشلته وقبلته فرحا ثم تابعت سيري في العتم .

ابتدا الجوع والعطش واللهفة الى سيجارة . بدأت ابحث في الظلام عن أي شيء يؤكل . كان الامل مقطوعا في ايجاد قطرة ماء في هذه الارض القفر . رحت امضغ بعض أوراق الصنوبر فالتهب جوفي عطشا . كالحيوان انحنيت ابحث عن عشب اخضر . كانت هناك أعشاب يابسة تغطي الارض . تابعت سيري تحت هذه الوطاة . الحياة في داخلي كانت أقوى . تناولت بعض الحجارة وضغطت بها معدتي لاخفف من صراخ الجوع . بعد سير مضن وجدت نفسي داخل حقل ارضه منبسطة . انحنيت ابحث عما يؤكل . تلمست جذعا رحت اتحسسه في الظلمة من الاسفل الى الاعلى. آه. آه. يا الهي، كانجذع داليةعنب وضعت الكلاشن جانبا وتسلقت الدالية . قطفت كميات كبيرة من العناقيد ، حملتها ونزلت ، بدأت التهم العناقيد كثعلب . العنقود بكامله كنت احشوه في فمي وانهش حبيباته بنهم حيواني . امام هذه المائدة الالهية التي اعادتني الى الحياة برحيقها ، ظللت ساعة كاملة .

شبعت . استعدت نشاطي وطاقتي . وضعت سلاحي في كتفي وتزودت بما تبقى من عناقيد العنب . بعد ان قطعت الحقل واجهني واد مظلم . بدا لي كفوهة قبر واسع . وقفت على حافته تحت الظلام الدامس . ما كان بالامكان الالتفاف حوله . أخيرا ، بعد تفكير سريع ، قررت شق طريقي عبر الوادي .

انحدرت . كانت الحجارة كثيفة وسريعة التدحرج ، وانا ما أزال أعرج ولا اريد ان أحدث صوتا . كانت الحجارة ترتطم برجلي ، والاشجار تمزق ثيابي وانا ما ازال أعرج ولا اريد ان احدث صوتا . كانت الحجارة ترتطم برجلي ، والاشجار تمزق ثيابي وانا ما أزال اتابع طريقي .

بدأت افكر برفاقي الذين فقدتهم . ماذا حدث لهم ؟ أوصلوا ام لا ؟ هل ما زالوا يتابعون مسيرتهم ؟ وفكرت ان كنت في الطريق الصحيح أم أنني اخطأت ؟ وهل أصل أم لا بعد كل هذا الشقاء المرير ؟ أين انا الآن يا ربي ؟

بعد اجتياز الوادي فاجأني واد آخر اكثر ظلاما من الاول . كان الوادي محروقا . عرفت ذلك من عري الاشجار والرائحة . تجنبت الدخول في عمق الوادي . سرت في السفح حتى وصلت جزءا أشجاره غير محروقة ، فبدأت معركة مع الاشجار الكثيفة التي مزقت ما تبقى من ملابسي .

كنت أسير بقدمين مرضوضتين ، لكن قويتان . فجأة انطلقت أصوات. تسمرت في مكاني : يا للشيطان . ها هم ثانية . هذه المرة هل ستنجو يا يعقوب ؟

رأيت رجالا يسيرون على الحافة المقابلة من الوادي . اشعة القمر الذي بدا يبزغ ، كشفتهم . أربعة رجال مسلحون . بدأت اسير كمن يخطو في الفراغ خشية الضجة . كالريش كنت الامس الارض . لقد أحسوا بي على ما يبدو

فاختبأوا بين الأشجار . بيننا بدأت لعبة الخوف والشك . عندما يتحركون اختبيء واذ يختبئون اتحرك . لعبة القط والفار .

في البداية دمر الخوف اعصابي ، لكن كان على أن اتماسك لاخوض معركة النهايـة .

ليتني بقيت في الزعتر أقاتل حتى أموت . أي قدر لعين قادني لاموت في هذه الاودية البعيدة .

بعد أن تناوبت لعبة الاختفاء والظهور ، راودني الشك . انحرف ذهني باتجاه آخر : أيكونون شرذمة من رفاقـي ؟

كانت العزلة قد مزقت روحي عبر هذه الليالي القاسية ، وكنت بحاجة ارائحة انسان في هذا التيه . لنبثق النوجس ، وحرب التل الضاربة خلال اثنين وخمسين يوما : ماذا لو كانوا من الفاشست ؟ أخيرا قررت الاندفاع نحوهم مباشرة ورشاشي في وضع الرمي الغريزي . صحت بصوت غير عال : أنتم يا من هناك !

لم يجب أحد . كنت اقترب وهم ما زالوا قابعين بين الشجر .

بصرخة بين الموت والحياة ، بين القتل والنجاة ، بين اليأس والامل ، صحت : انا من تل الزعتر يا شباب . أنا يعقوب شحادة ، رشاشي في وضع الرمي ان كنتم أعداء . اذا كنتم رفاقا اخرجوا ولا تخافوا .

كانت الاصبع على الزناد ، وتوقعت انهمار الرصاص علي . كنت الآن على مسافة عشرة أمتار منهم . لا صوت . لا حركة . ولم يطلقوا ، اقتربت أيضا . على مسافة متر منهم أخرجت بطاقتي الفلسطينية واليد ما تزال على الزناد . واجه صدري فوهة رشاش متأهب ، تناول أحدهم البطاقة وتعارفنا . كانوا من جماعة شاردة غير جماعتي .

قالوا : لو لم تقل انك من الزعتر لقتلناك . عمرك طويل .

وانخرطنـا في عناق حـار .

— 2 —

ريم ، المرأة التي عرفها غيلان الدمشقي بعد الليلة الاولى ، كانت امرأة حزينة ، ومشتتة . انكسرت بوصلة اتجاهها في أعماق الصحراء فضاعت .

ومع أن الرجل كان يتعب من الكلام كثيرا ، الا انه كان يرى ويسمع ويتأمل ، وهو يتأرجح بين الاسى والغضب الصامت . وهذه المرأة دائبـة الشكوى ، دائبة الاحتجاج . تفيض مرارة واشمئزازا من قذارة هذا العالم .

عندما اتهموها بالعهر والانتقال من رجل لآخر ، كانت ترد عليهم بأحكام مطلقة : ماذا جنينا من حربكم ؟ النساء تحولن الى شبه مومسات للمقاتلين

تحت ذريعة التحرر الميداني. قسم كبير من الثوريين سقط في الجنس والافيون. آخرون توهموا أن باستطاعتهم تفجير الثورة على مستوى الوطن العربي فذهبوا الى المشانق . هذه كانت المحصلة .

ويسالها غيلان : والشهداء . ريم !

تقول باسى عميق : وحدهم المنارة . كانوا ضحايا . لقد نجوا بدمائهم واستثمرت قيادتهم رائحة الدم .

ـ وانت يا ريم . انت لماذا ... ؟

ما كانت لديه رغبة في التتمة . كان يعرف طاقتها الخاقدة على العالم . قدرتها الذاتية واللامتناهية على الادانة المطلقة لكل ما هو سائد .

ـ يخيل الي ان اليسار المتطرف كان جموحا اكثر مما ينبغي .

يصعد الشهيق حاملا عبر الصدر بوادر نشيج . مقاتلها الذي اضطفته في العصور الرديئة ، اخرج سهمه الاخير بعد الحرب واطلقه ، فاصاب قلبها الصغير فتناثر . قال لها : انت عاهرة .خنتني مع مقاتلي مواقعك الصغار فانت طالقة .

ـ لقد وصل الدمار الروحي حافة الخيانة . اجل اجل . الجميع يعرف من الذي سلم عاصي الغضبان ومجموعته لحبل المشنقة. كلفته الخيانة من الداخل.

ـ ريـــم !

دخلت الآن عتبة الهتك كما دخلت مدار النحيب . كانت ترتجف تحت اعصار هب فوق سهوب نفسها فاقتلع الشجر والجذور والصخور .

ـ المرأة لا تبحث عن رجل آخر الا بعد ان يصبح فراشها باردا . لقد حاولوا معي في المواقع لكنني رفضت ، فقالوا : انت رجعية . الجنس أيضا شراكة كالطعام والموت . لكنني صرخت بأنني ارفض هذه الفوضى . حدث ذاك بعد ان استرخت الاشياء ، وبعد ان خمد بريق الشيء الاعظم الذي فاجا كاعصار . لقد انحسر مد البحر فعرى الاصداف والطحالب والجثث والسرطانات الميتة وقطع الخشب المنخورة ، فخرجت الروائح .

وفي ذاك الوقت كانت بيروت تتشح بالحداد الذي يليق بامرأة غادرها زوجها الى مملكة الموت .

ـ أجل . أجل . قد تسميني عدمية . لكنني ما عدت مؤمنة بشيء بعد الذي حدث . حتى المقاومة بدأت تغوص في الوحل . مملكة الفاكهاني أصبحت تعج بالاصوص والقتلة والحشاشين واللواطين . انظر الى مكاتبهم الفاخرة وسياراتهم الفاخرة وولائمهم الفاخرة. انظر الى مهماتهم السرية. والاموال التي يبعثرونها في السمرلند والكورال بيتش وسقراط والعجمي والكومودور وملاهي الحمراء ، بينما الشعب في المخيمات والقرى واطراف المدن يتضور تحت وطأة

هذا الوحش الاستهلاكي . أهذا هو حصاد الحرب الاهلية ؟

ـ ريم ! والشهداء ؟ وتل الزعتر ؟ وعمليات الداخل ؟ ودلال المغربي ؟

ـ هيه . هيه . النيازك . النيازك . انت ما زلت ماخوذا بذلك الوهج السرابي الخـادع .

ـ أي سـراب ؟

ـ سراب الدم ووثبة التاريخ والصراع الطبقي .

ـ وانت . انا خيبك رجل هل انتهى ...

قطعت عبارته وهي مجلة بدمعها : طظ على الرجال . الى الجحيم كـل شيء . الاوطان الخائنة والصراع القومي والطبقي . انا لا اتحدث عن ذلك . انني اسال لماذا يتمزق حلم الاطفال كطائرة من ورق في الفضاء ؟ لماذا اتـى بي من البلاد البعيدة ، من بلادي ، ثم غدر بي ؟

بدا صعبا اعادة التوازن لحوار بين قطبين أحدهما حار والآخر بارد . احدهما موجب والآخر سالب .

كانت الأرض ترتج بملايين الاهتزازات في أعماق المرأة التي انكسرت بوصلة اتجاهها ، بينما استعيض عن ابرة الاهتزاز بهذه التموجات البرقية التي يوقعها خفقان الصدر واللسان والعينين الجريحتين .

اعـــتـــراض

اللقاء الاول كان في صالة عرض ، وكان مباغتا . مجموعة صغيرة كانت تشاهد شريطا سينمائيا عن تل الزعتـر .

بعد انتهاء العرض جرت مناقشات خاطفة حول الفن وضراوة ملحمة التل . بشر الغزاوي قال بفخامته المعتادة : للفرنسيين كومونة باريس التي استمرت اثنين وسبعين يوما ، ولنا كومونة التل الذي صمد اثنين وخمسين يوما .

كانت هناك امرأة غريبة تشاهد الشريط . امرأة مثيرة شاركت في الحوار على نحو استعراضي . قالت بان الفيلم ليس في مستوى الملحمة . الواقع كان اكثر حدة وضراوة . كانت تتكلم بلهجة امرأة واثقة مما تقول أكثر منها مقتنعة .

واستطردت بلجتياح تتحدث عن أفلام أوربية وأمريكية ، ثم انتقلت تحكي عن فيلم ستالينغراد . ختمت مهرجان ثقافتها : كان ينبغي اخراج تل الزعتر بمستوى ستالينغراد . التل هو ستالينغراد الفلسطينيين .

بشر الغزاوي فاجأته حماسة المرأة فانبهر بها . وعندما صحح لها المخرج بعض الاخطاء والاسماء والمصطلحات ، اندفع بشر يعترض المخرج مؤيـدا المـرأة .

بعد الخروج من صالة العرض ، سارا معا . تحدثا باقتضاب في الشارع

الضيق . هو افتتن بأبهتها وشموخها الارستقراطي وهي رأت فيه ملامح طفولة وصيد عابر . سألته : أليك سيارة ؟

قال : بالتأكيد .

ـ لن تكون محرجا لو أوصلتني .

ـ أبدا . بكل رحابة صدر .

في الطريق سألته ان كان معجبا حقا بالفيلم فأجاب : الحقيقة . لا . انا شاركت في معارك التل . كما قلت الملحمة كانت أكثر ضراوة وعنفا . انما الشريط يخدم القضية عموما . تجاوزت المرأة الموضوع فسألت :

عفوا . نسيت أن اسألك عن الاسم !

ـ بشر الغزاوي .

ـ أنا اليزابيت .

ـ أين تسكنين ؟

ـ في الحمراء . الكومودور .

ـ أوه . نحن جيران اذن ! انا اسكن في راس بيروت . وبطيقته التي ثرتدي قفازا حريريا فوق جلد ذئب قال : سأكون سعيدا لو قبلت دعوتي لتناول شيء في مكان ما . ما رأيك بالكورال بيتش ؟

ضحكت . نفضت شعرها القمحي المصبوغ الى الوراء : اوكي .

ابتسم بشر الغزاوي بانتصار . ابتسمت اليزابيت لهذا الطفل الذي يحب اللعب السريع بالنار .

ـ 2 ـ

قال : نبني بيتا في الصخر يتوطد ؟

قالت : نبنّيه عميقا وشامخا .

قال : يصد الريح والنوائب ؟

قالت : ويصد الذئاب وأزمنة الشتات .

قال : نفصد دمنا عهدا وميثاقا ؟

قالت : نفصد دمنا عهد وفاء حتى الموت .

فوق الصخر ، قبالة البحر الشاهد والشمس الشاهدة ، رفعا ذراعيهما فتشابكتا فضرب بهما الصخر المسنّن فانفصد الدم فامتزج . هي تعرّت وهو تعرى واندفعا في لج البحر . غاصا عميقا ثم خرجا الى السطح ثم غاصا ثم طفوا . وفي لحظة من الفرح الطفولي داخل البحر الشاهد وأمام الشمس الشاهدة ، تواشجا وجها لوجه وصدرا لصدر وساقين لساقين .

عندما صرخت هي وصرخ هو ، ردد البحر والشمس صدى صوت الطفل الذي تدفق بين الأبيض والاحمر . الأبيض الذي خرج من دمه والاحمر الذي

خرج من دمها .

بعد حين غابت شمس ثم أشرقت . تمدد البحر وعتى . أقبل موجه يتفقد الشطآن والصخور العاتية والمنازل المرصوصة في اعماق الصخر . فوجيء الموج العاتي بدم قرمزي جاف ، وبالرمل .

بمنـازل من الرمـل المجـوف .

مسح الموج الدم والرمل في لحظة برق وعاد . بعد عودته ما كان شيء قد حدث . طائر أبيض كان يغني هناك في أقاصي البحر . صوت أغانيه مزيج من الانين والضحك .

الشبكة

مقهى ومطعم ومسبح السمرلند ، لوحة من الرخام الابيض المتناسق والمهندم ، صنعها مهندسون ومعماريون اوربيون في كل مكان على شواطيء المتوسط لتكون منتجعا على حافة البحر . واحة هادئة للعشاق ومالكي الارصدة والعمارات والسيارات وحملة الماغنوم والسميث .

هذه الريفييرا اللبنانية تقوم وسط براكات حزام البؤس واللاجئين ومهجري جنوب لبنان وفقراء الاوزاعي والرملة البيضاء .

وانت تجتاز رمل البحر الابيض ، تواجهك البحيرات الاصطناعية وشماسي الصيف . والحدائق المصنوعة والسترات الانيقة للخدم الذين يتحركون كالدمى .

بعد أن تلوب في الممرات والمتاهات وفوق ادراج الرخام الابيض ، تفاجئك مغارة مجوفة ، صنعت باتقان لخلوات العشاق .

تقول اليزابيت وهما يدخلان بوابة المنتجع : تعال اريك مشهدا لن تنساه . تجر بشر الغزاوي من معصمه ويدخلان تحت القبة الساحرة شبه المظلمة .

ـ الله ! ما هذا الشيء الخارق ! ؟

وتقول اليزابيت : هذه استراحتي المفضلة .

نوازل بلون البازلت تتدلى من سقف الكهف . أضواء خافتة مصنوعة من الاحمر والاصفر والازرق . طنافس من جلد لامع . جلود غزلان مصبوغة ملصقة على الجدران .

النافذة المقوسة والواسعة تطل على المشهد البحري . بين البحر البعيد واللامع ، بحيرة اصطناعية على حافة الكهف .

تغمز اليزابيت خادم الكهف فينحني ويخرج . يصير الكهف لهما الآن . على ديوان مثير ملاصق للجدار يطل على البحيرة ومشهد البحر ، يجلسان

متلاصقين بحميمية .

الدهشة الملونة يصبغها بشر بحركات وكلمات تليق بالمكان وبهذه الليدي التي باغتته فانصعق بها .

تساله ماذا يرغب أن يشرب فيقول : سكوتش وتطلب هي كاسا خاصا من الجن .

فخذاهما شبه متماسين ، واصابعهما تتلامسان تلامس البحيرة لجدار الكهف .

لقد ارتدت الليدي اليزابيت فستانا ورديا شفافا في هذا الغروب الفائظ . فستان محبوك مشقوق الصدر واحد الجانبين . وكما كان الشق الصدري ينحسر حتى منتصف الذهدين الابيضين ، كان الشق الجانبي يتجاوز الركبة نحو الفخذ .

امراة كاملة الحضور ذات توهج ملكي .

ـ اليزابيت ..

وجثمت عيناها في عينيه . كانت أشعة عينيه تخترق شق صدرها الجامح

ـ هيه !

ـ الحقيقة انني مسحور وماخوذ لكانني في حلم .

ـ بالمشهد هاه . حقا انه لساحر .

ـ لا . ليس بالمشهد . بل بك . يا الهي تبدين الآن كالهة اغريقية .

تبتسم . صلافة المراة الطاغي جمالها يضغط بهدوء اصابعه المرخية والمستسلمة لكفها .

ـ لا تكن مبالغا !

ـ يا الهي ! من اي نجم هبطت ايتها الساحرة . صدقيني ان احساسي بك يضارع احساس الاعمى بالضوء .

ـ أووه . يا للشعر !

ـ ابدا . ابدا . ليس هذا شعرا انه الحقيقة . فيك شيء غامض يخلب اللب .

اليزابيث ضحكت للاطراء . وضحكت أكثر من هذه الطفولة المدهوشة بالغابة : كل النساء غامضات كالغابات . أنتم الرجال تقولون ذلك . ثم استطردت: قل لي. كم عدد النساء اللواتي رددت على مسامعهن هذه الاسطوانة؟

غضب بشر الغزاوي للحظة : اوه اليزابيت ! لا . لا انت تظلمينني . بشرفي لم تسمع هذه العبارة امراة قبلك . أنا لا أجامل ابدا يا عزيزتي في مثل هذه الامور . لقد اخفى تحت غضبه المدلل ، غرور الدونجوان الذي بانت سريرته . ومع انه كان يعاني ماساة البحث عن الرضى والمراة التي رسمها

في رأسه وهما ، وخيل اليه انه وقع عليها ، الا أن اليزابيت لم تكن تعرف ولا قرأت ولا هي معنية بمأساة هذا الذي يبحر في بحار النساء ويظل عطشا لا يرتوي .

انتهى كأس الويسكي فطلبت له آخر .

في أعقاب الكأس الثانية ، ابتدأ العالم يترنح في رأس بشر الغزاوي .

حاول تقبيل المرأة فصدته بتهذيب : لا . نحن في مكان عام . بعد أن ننهض من هنا نذهب الى شقتي .

ـ يبدو انك قاسية

راوغته فتخطت العبارة ومسحت شعره برقة .

ـ انا انسان شفاف وحزين وأنا أحبك . قال ذلك وهو يقبل معصم المرأة التي تمسد شعره .

وفي غمرة تدفق أناه وهياجه وانبثاق صباحاته وأماسيه ، سألته بغتة : لكنك لم تقل لي بعد من أنت ؟ وبهت . عقد حاجبيه وسدد نحو وجهها : ماذا تقصدين ؟

ـ عنيت اسمك الحقيقي .

ـ لكنني قلته لك .

ـ اعطيتني الاسم الحركي لا الحقيقي .

ضحك بشر . شرب جرعة . سدد عينيه مرة أخرى الى فسحة النهدين فقرأ شوقه وآلامه ، ثم انهمرت الذكريات وضربة الخيانة .

ـ كاسك يا ... هل اقول بشر أم ،،،

ـ لا . لا . لنشرب كأس المرحوم يعقوب شحادة .

وقرعا الكأسين . هو أترع كأسه حتى الثمالة وهي قذفت بما في كأسها الى الارض .

ـ هكذا اذن !

غمزت الخادم الواقف بالباب طالبة كلسا أخرى .

ـ وماذا تعمل الآن ؟ سألته المرأة الغامضة .

واستفاض بحكايات ذات معنى ، خلطها بقايا صحوه بأمور لا معنى لها . وحكى طويلا عن خيانة زوجته .

وهو يتعاطى كأسه الرابعة سألته لماذا خانته زوجته ، فأجاب بعبارات أسية وجارحة .

كانت أسئلتها تمزج الشخصي بالعام لتنأى به عن الصحو . وسألته عن حياته وعلاقاته ، وماذا يقرأ ومع من يقيم علاقات أثيرة ، وما نوعية الحوارات التي تجري بينه وبين الآخرين ، وعبر ذلك سألت عن وضع المقاومة بعد

الحرب الاهلية ، وعمليات الداخل ، ولقاءات التسوية في الخارج بين العرب واليهود ، وما هي مشروعاته المستقبلية ، وهل ينوي الزواج مرة أخرى .

وبدت الاسئلة عادية وعابرة بين رجل سياسي وامرأة جميلة متقنة الجسم ، تفتح مجالا لرجل مهزوم وعاشق خائب ، كي يكشف عن جراحه .

كل ما يعرفه وترسمه استيهاماته وتحليلاته الاستعراضية ، استفاض به . لقد تدفق كما يتدفق ماء سد انفتحت فيه فجوة . ولكن كيف تقضي لياليك ؟ جاء السؤال عرضيا هو الآخر .

تنهد بشر . ومن بنيه شعت شمس جريحة : كما ترين . نساء وخمر وشرشرات .

ونفخ . اشعل لفافة وهو يرتعش : أحيانا الجأ في الواخر الليالي الى صديق حميم لنفسي . صديق غير ملوث ما زال يؤمن بوثبة التاريخ وضياء الازمنة القادمة . اشاحنه في الامسيات فيتهمني بانني مهزوم وآثار من الخيانة فأقول له بانك ملتاث بآفاق لن تشرق شموسها أبدا .

ـ من هو ؟

ألقت السؤال بتلقائية .

ـ أنت لا تعرفينه . اسمه غيلان الدمشقي . انسان مسكين وخارج هذا الزمان القحب .

اهتزازة طفيفة عرت جسد المرأة . بشر الغزاوي لم يلحظ غير اهتزازة السكوتش في ربع الكاس الرابعة .

ما عاد هناك سمرلند ولا كهف ولا بحر . غطت البحر والعالم ضبابة رمادية معتمة راحت تركض حتى وصلت الى مشارف طرطوس وأرواد ، فحاصرتهما .

ـ لننهض . قالت المرأة .

ـ أنت مكتئبة . اليزابيت ؟

ـ لا . لا . أبدا . لدي موعد الليلة مع صديقة تذكرته الآن .

نحن الآن خمسة فدائيين نتابع سيرنا بين الاشجار عبر سفح جبل ضخم . فاجأنا نهر . مياهه لمعت تحت أبصارنا تحت ضوء القمر . كنا عطاشا ورغبنا الانحدار نحو النهر . هناك صخور عالية تمنع وصولنا . عدنا ادراجنا الى سفح الجبل . كان الذهاب الى الماء مخاطرة بالموت . ازداد العطش وألم الجميع . استرحنا على السفح قليلا . حاولنا الانحدار نحو المياه التي تلألأت تحت الاشعة وتجذبنا نحوها كحقل مغناطيس ، ولكن عبثا . عدنا الى السفح من جديد .

فجأة سقطت في حفرة فغصت حتى رقبتي . صرخت . عاد اثنان من رفاقي وانتشلوني . وابتدانا نسير الي الامام في محاذاة النهر .

لقد مضى علينا حتى الآن ستون يوما لم يلامس فيه أجسادنا الماء .

يقول بشر الغزاوي : امرأة كالرعد . أنا مصعوق ومخلوع القلب يا أخي غيلان .

ويرد غيلان ضاحكا : متأكد انها ستلقي الدونجوان وتلثم جراحه ؟

ـ بشرفي . بشرفي . بلا مبالغة انها الهة حقيقية . ولا الليدي تشاترلي يا رجل !

ـ نمت معها ؟

ـ لا . موعدنا غدا .

وبحركة مسرحية فرقع أصابعه في الفضاء ابتهاجا .

ـ واذا ما فتكت بك كالأخريات وأدمت قلبك ؟

ـ دعك . دعك من هذه الشكوك . يا أخي انت عدو محترف للنساء ولا تفقه بهن شيئا .

ـ الحقيقة . أنا أقر بجهالتي المطبقة بهن يا أخي بشر .

أخذ جرعة من كأسه ثم أشعل لفافة من أخرى . كان يشرب ويدخن بانفعال طفل .

ـ ستكون ليلة من ليالي ألف ليلة .

ضحك غيلان : بالتأكيد . الليلة الثانية بعد الالف عزيزي هرون الرشيد. هل الليدي زبيدة رائعة الى هذا الحد ؟

ضرخ وهو يحسو الويسكي كمن يرضع : زبيدة ايه ! هذه اليزابيت . علي الطلاق ولا هيلين طروادة !

صدمت يد غيلان حديد الشرفة عفوا . ارتعدت عضلة في وجهه الذي شحب . رأى الضبابة الرمادية الراحلة ، وكتم صراخه .

سأل غيلان الدمشقي : لا بد أن نذهب للقائها غدا ؟

قال بشر الغزاوي : هذه لحظتي التاريخية وبعدها أكون أو لا أكون .

وضع غيلان أصابعه فوق عينيه ورمى رأسه الى الجدار .

من بين الاصابع ، وهو يتذكر طرطوس وارواد ورجال الماغنوم ، لمح نيزكا يهوى من سماء سحيقة ويتناثر .

(ـ الليلة الثانية بعد الالف ـ)

في الليلة الثانية جاء بشر الغزاوي . وجه مربد وغاضب وعينان حمراوان تنضحان شررا . خطا نحو الشرفة دونما تحية . جلس على كرسيه المعهودة

والمشرفة على البحر . ومن رأسه الى الخلف ومد ساقيه على الفوج الشرفة .

بعد لحظة زفر بحرقة مرة . قال غيلان : آتيك بكأس ؟ أومأ موافقا .

خلط غيلان كأس ويسكي بالثلج . وضع كأسا امام بشر وأبقى كأسا بين أصابعه . وارتخى الصمت .

صوت البحر العالي كان يشتت الصمت في هذا الغسق المتأخر .

ـ لا شيء . لا شيء . عالم قذر وأنا هالك .

تمتم بشر بغصة ثم جرع طويلا من كأسه .

أدرك غيلان ان الرجل أصيب ، والجراح القديمة ستنفتح .

بشر الغزاوي يمسح شعره بعصبية ، ويدخن على نحو متواصل .

ـ هل آتيك بسيكار هافانا ؟ رد بشر : لا . لا . ما عدت أريد شيئا غير الموت في هذا العالم القذر . مع الرشفة الاخيرة ابتدأ يسعل . شاهد غيلان النار والدم يصعدان من عينيه ووجهه . طلب كأسا أخرى . كان واضحا ان اي سؤال سيفجره . قرر غيلان الصمت . واحضر له كأسا .

وضع بشر أصابعه العشرة فوق وجهه ، ونفخ بأصداء خارجة من مسام الدم .

ـ لا بد أنني أتفه مخلوق ولدته الارض . حتى الحشرات أقل نذالة مني .

وتنهد : يا الهي . يا الهي . أية خدائع . أية أوهام في رؤوسنا نحن أولاد العواهر ! ؟

وتحت غمرة الاسى وفيضانات الجراح والبكاء ، راح يهذي .

ابتدأ بالنساء الخائنات وسافر نحو الثورات المغدورة .

ـ عالم من وحل ، عالم كلاب وخنازير . هذا الزمان اللقحب من أين أتى ولماذا يبقى الانسان فيه ؟

صعدت للضراوة والرعب . امتزجت بمرارة قديمة .

اهتز غيلان المدشقي . سأله بهدوء : ما الخبر ؟ دعنا نفهم ما حدث .

ـ ماذا اقول لك . أنت تنبأت . آه . آه . كم انا مخدوع . يا الهي ما اعمق خديعتي !

كان الدمع ينفر الآن من بين أصابعه راشحا نحو معصميه .

ـ ولكن ينبغي ان تهدأ قليلا لنفهم ما جرى ! اهي تلك المرأة ؟

تحت النشيج راح يتحدث بارتعاش عن المرأة التي صعقته وخلعت قلبه خلال ثلاثة لقاءات .

في الليلة التي اسماها الليلة الواحدة بعد الالف والتي سيكون فيها أو لا يكون ، اكتشف سر المرأة التي أغوته ثم خذلته وطردته من بيتها .

حتى الفجر وهي تسقيه وتذله وتستجوبه . كانت نصف عارية ، لكنها تركت بينهما مسافة . رقصت له وغنت وداعبته ومدت اصابعها بين فخذيه ، وسمحت له باعتصار نهديها وضغطها الى صدره ، لكنها امتنعت عليه في لحظة هروب الشبق . كانت تسأل وتسأل وكأنها تمثل دورا في مسرحية دربت عليها مرارا . تحت وهج تياراته المتموجة ، غب الثمل وبعد أن تأبت عليه تلفظ بكلمات نابية عن العهر والتمثيل والادوار القذرة . واستشرت الالهة فتحولت الى ذئبة . بصقت في وجهه ثم صرخت به : حقير . نذل . أنت لا تستحق أكثر من الركل في مؤخرتك . هيا اخرج من بيتي قبل الفضيحة !

كانت الآن واقفة وسط الصالون ، متأهبة لقذفه من الباب .

صعد الدم الى صدغه واشتعلت نيرانه القديمة . امسك بها من شعرها وباليد الاخرى شق ثوبها الداخلي من فتحة الصدر حتى ما بين الفخذين . طرحها ارضا ثم داس وجهها وسحق نهديها العاريين بقدميه !

صرخت : آه . أيها الكلب ستموت . أنت لا تعرف من أكون . سترى .

كانت هناك مرمية كنفاية . مذلة ، ومسحوقة وغارقة بالدمع والهياج الذئبي .

وهو على العتبة نظر اليها وبصق : في مؤخرتي هذه أنت ورجالك السريون يا عاهرة .

عندما حطموا الباب ودخلوا عليهما ، كانوا يرتدون السترات الكاكية وبين قبضاتهم مسدسات الماغنوم .

الطلقة الاولى حطمت زجاج نافذة الشرفة . الثانية مرت بين وجه غيلان ووجه بشر الغزاوي فاصطدمت بافريز الشرفة .

استيقظ تل الزعتر ناهضا من تحت الانقاض .

صرخ يعقوب شحادة الاعزل وكأنه يثب من فوق جسر ثم هوى كشهاب ناري من الطابق الثامن .

* مشهد الهروب الى الجبل وتسير الحصار ، يستند وقائعيا ، لا كنص أدبي ، الى شهادة المقاتل يعقوب شحادة في كتاب طريق تل الزعتر .

هذا هو ملفنا الثالث : السينما العربية والافريقية . مفهوم « الثقافة الجديدة » ، كما اكدنا عليه منذ اعدادنا الاولى ، ينفصل عن كل ما هو تقليدي ـ ماضوي ، ولا يحصر الثقافة في مجال الكتاب فقط ، هذا المقدس الكئيب . تتسع مجالات الثقافة يوما بعد يوم ، تفتح وتكتشف ، وما يزال الغالبنا يعتقد ان الثقافة هي الكتاب . ماذا نملك غير الاشفاق على وعي كهذا ؟ ليست السينما تراكم صور وكلام نلجا اليه عند الفراغ ، انها كتابة تلخص تاريخ الفن الانساني . وها هي في يد من يضيفون اغلالا الى الغل ، يذهبون بنا بعيدا ، من غير ان نعلم ان شقوق الراس ، والضحك المباح ، اصبحت غريبة عن جسدنا . ان الوعي الذي تنشره السينما السائدة يترسخ بفعل غياب سينما وطنية تحررية مضادة ، انه بكل بساطة محو « متحضر » لما نريد ان يكونه العالم الثالث .

لهذا الملف اسبقيته ، فهو تحليل ، مواجهة ، شهادة . وما نطمح اليه هو ان يكون عملنا بداية وحوارا بين المهتمين ، ثم دفعا لغير المهتمين نحو تغيير رؤيتهم للممارسة الثقافية . لم يبق على احراق الكتب غير زمن قصير.

ساعدنا الصديق مومن السميحي على انجاز هذا الملف ، اتفقنا في التصور العام ، ثم اعطيناه حرية المبادرة . انها تجربة اخرى تدخلها المجلة . لن نعرض لمواد الملف ، نكتفي بالاشارة الى ان هناك اسماء اتصلنا بها ولم تجب ، واخرى اشترطت مقابلا ماديا ، تاسفنا للاولى ، واعتذرنا للثانية . هذه هي الاسماء : وليد شميط (لبنان) ـ ماجدة واصف (مصر) ـ جابوس عبد الكريم (تونس) ـ مهند بن سلامة (الجزائر) ـ خميس خياطي (تونس ـ باريس) .

تحية لكل المشاركين .
« المجلة »